رسالة في الخوف من الموت

ابن مسكويه

قال أبو علي، أحمد بن محمد بن مسكويه (ت 421هـ) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، وصلواته على مُحمدٍ وآله الطاهرين.

لما كان أعظم ما يلحق الإنسان من الخوف: هو خوف الموت، وكان هذا الخوف عاماً وهو مع عمومه أشد وأبلغ من جميع المخاوف وجب أن أقول:

إن الخوف من الموت ليس يعرض إلا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة، أولا يعلم إلى أين تصير نفسه، أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه؛ فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدمٍ ودثور، وأن العالم سيبقى موجوداً بعده وهو ليس بموجود فيه، كما يظنه من يجهل بقاء النفس وكيفية المعاد.

أو لأنه يظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما تقدمته وأدت إليه وكانت سبب حلوله، أو لأنه يعتقد عقوبة تحل به بعد الموت، أو لأنه متحير لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت، أو لأنه يأسف على ما يخلفه من المال والمقتنيات، وهذه كلها ظنون باطلة لا حقيقة لها.

أما من جهل الموت ولا يدري ما هو على الحقيقة فإنا نبين له أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يُسمى مجموعها بدناً كما يترك الصانع استعمال آلاته. وأن النفس جوهر غير جسماني وليست عرضاً، وإنها غير قابلة للفساد، وهذا البيان يحتاج فيه إلى علوم تتقدمه وهو مبرهن مشروح على الاستقصاء في موضعه الخاص به. ومن تطلع إليه ونشط للوقوف عليه لم يبعد مرامه؛ وعلم أن ذلك الجوهر مفارق لجوهر البدن مباين له كل المباينة، بذاته وخواصه وأفعاله وآثاره، فإذا فارق البدن كما قلنا وعلى الشريطة التي شرطنا بها البقاء الذي يخصه؛ نُقيّ من كدر الطبيعة، وسعد السعادة التامة، ولا سبيل إلى فنائه وعدمه.

فإن الجوهر لا يفنى من حيث هو جوهر ولا تبطل ذاته، وإنما تبطل الأعراض والنسب والإضافات التي بينه وبين الأجسام بأضدادها. فأما الجوهر فلا ضد له، وكل شيء يفسد فإنما فساده من ضده.

وإن أنت تأملت الجوهر الجسماني الذي هو أخس من ذلك الجوهر الكريم واستقرأت حاله؛ وجدته غير فانٍ ولامتلاش من حيث هو جوهر، إنما يستحيل بعضه إلى بعض، فتُبطل خواص شيءٍ شيءٌ منه وأعراضه. فأما الجوهر نفسه فهو باق لا سبيل إلى عدمه وبطلانه. مثال ذلك الماء فإنه يستحيل بخارا وهواء وكذلك الهواء يستحيل ماء ونارا فتبطل عن الجوهر أعراضه وخواصه وأما الجوهر من حيث هو جوهر فإنه لا سبيل إلى عدمه.

هذا في الجوهر الجسماني القابل للاستحالة والتغير. فأما الجوهر الروحاني الذي لا يقبل الإستحالة ولا التغير في ذاته، وإنما يقبل كمالاته وتمامات صورته، فكيف يُتوهم فيه العدم والتلاشي.

وأما من يخاف الموت لأنه لا يعلم إلى أين تصير نفسه أو لأنه يظن أن بدنه إذا انحل وبطل تركيبه فقد انحلت ذاته وبطلت نفسه ،وجهل بقاء النفس وكيفية المعاد، فليس يخاف الموت على الحقيقة، وإنما يجهل ما ينبغي أن يعلمه. فالجهل إذاً هو المَخوف إذ هو سبب الخوف. وهذا الجهل هو الذي حمل الحكماء على طلب العلم والتعب به وتركوا لأجله اللذات الجسمانية وراحات البدن واختاروا عليه النصب والسهر، ورأوا أن الراحة التي تكون من الجهل هي الراحة الحقيقية. وأن التعب الحقيقي هو تعب الجهل لأنه مرض مزمن للنفس، والبرء منه خلاص لها وراحة سرمدية ولذة أبدية.

ولما تيقن الحكماء ذلك واستبصروا فيه وهجموا على حقيقته ووصلوا إلى الروح والراحة منه؛ هانت عليهم أمور الدنيا كلها، واستحقروا جميع ما يستعظمه الجمهور من المال والثروة واللذات الحسية، والمطالب التي تؤدي إليها إذ كانت قليلة الثبات والبقاء، سريعة الزوال والفناء، كثيرة الهموم إذا وُجدت، عظيمة الغموم إذ فُقدت، واقتصروا منها على المقدار الضروري في الحياة، وتسلّوا عن فضول العيش الذي فيه ما ذكرتُ من العيوب وما لم أذكره، ولأنها مع ذلك بلا نهاية؛ ذلك أن الإنسان إذا بلغ منها إلى غاية تاقت نفسه إلى غاية أخرى من غير وقوف على حد ولا نتهاء إلى أمد. وهذا هو الموت لا ما يخاف منه، والحرص عليه هو الحرص على الزائل، والشغل به هو الشغل بالباطل.

ولذلك جزم الحكماء بأن الموت موتان موت إرادي وموت طبيعي. وكذلك الحياة حياتان حياة إرادية وحياة طبيعية وعَنوا بالموت الإرادي إماتة الشهوات وترك التعرض لها، وبالموت الطبيعي مفارقة النفس البدن.

وعنوا بالحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا من المآكل والمشارب والشهوات. وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدي بما تستفيده من العلوم الحقيقية وتبرأ به من الجهل. ولذلك وصى أفلاطون طالبَ الحكمة بأن قال له: مت بالإرادة تحيا بالطبيعة.

على أن من خاف الموت الطبيعي للإنسان فقد خاف ما ينبغي أن يرجوه؛ ذلك أن هذا الموت هو تمام حد الإنسان لأنه حي ناطق ميت. فالموت تمامه وكماله، وبه يصير إلى أفقه الأعلى. ومن علم أن كل شيء هو مركب من حد، وحدّه مركب من جنسه وفصوله، وأن جنس الإنسان هو الحي، وفصلاه الناطق والمائت؛ علم أنه سينحل إلى جنسه وفصوله لأن مركب لا محالة، منحل إلى ما تركب منه. فمَنْ أجهلُ ممن يخافُ تمامَ ذاته؟! ومَنْ أسوءُ حالاً ممن يظن أن فناءه بحياته، ونقصانه بتمامه؟!

ذلك أن النا قص إذا خاف أن يتم، فقد دل من نفسه على غاية الجهل. فإذاً الواجب على العاقل أن يستوحش من النقصان ويأنس بالتمام ويطلب كل ما يتممه ويكمله ويشرفه ويعلى منزلته، ويُخلي رباطه من الوجه الذي يأمن به الوقوع في الأسر، لا من الوجه الذي يشد وثاقه ويزيده تركيباً وتعقيداً، ويثق بأن الجوهر الشريف الإلهي إذا تخلص من الجوهر الكثيف الجسماني خلاص بقاء وصفو، لا خلاص مزاج وكدر ؛ فقد سعد وعاد إلى ملكوته، وقرب من بارئه، وفاز بجوار رب العالمين، وخالط الأرواح الطيبة من أشكاله وأشباهه، ونجا من أضداده وأغياره.

ومن ههنا يُعلم أن من فارقت نفسه بدنه وهي مشتاقة إليه (يعني إلى بدنه) مُشفقة عليه، خائفة من فراقه؛ فهي في غاية الشقاء والبعد من ذاتها وجوهرها، سالكة إلى أبعد جهاتها من مستقرها، طالبة قرار ما لا قرار له.

أما من ظن أن للموت ألماً عظيماً غير ألم الأمراض التي ربما اتفق أن تتقدم الموت وتؤدي إليه؛ فعلاجه أن يُبين له أن هذا ظن كاذب، لأن الألم إنما يكون للحيّ والحي هو القابل أثر النفس، وأما الجسم الذي ليس فيه أثر النفس؛ فإنه لا يألم ولا يحس، فإذا الموت – الذي هو مفارقة النفس البدن – لا ألم له ؛ لأن البدن إنما كان يألم ويحس بأثر النفس فيه، فإذا صار جسماً لا أثر فيه للنفس؛ فلا حس له ولا ألم.

فقد تبين أن الموت حال للبدن غير محسوس عنده ولا مؤلم/ لأنه فراق ما به كان يحس ويتألم.

فأما من خاف الموت لأجل العقاب الذي يوعد به بعدُ؛ فينبغي أن نبين له أنه ليس يخاف الموت بل يخاف العقاب، والعقاب إنما يكون على شيء باق بعد البدن الداثر. ومن اعترف بشيء باق منه بعد البدن، وهو لا محالة معترف بذنوب له وأفعال سيئة يستحق عليها العقاب، ومع ذلك هو معترف بحاكمٍ عدل يعاقب على السيئات لا على الحسنات؛ فهو إذا خائف من ذنوبه لا من الموت.

ومن خاف عقوبة على ذنب فالواجب عليه أن يحذر ذلك الذنب ويجتنبه؛ وقد بيّنا فيما تقدم أن الأفعال الرديئة التي تسمى ذنوباً إنما تصدر عن هيئات رديئة، والهيئات هي للنفس، وهي الرذائل التي أحصيناها وعرفناك أضدادها من الفضائل.

فإذاً الخائف من الموت على هذه الطريقة ومن هذه الجهة، جاهلٌ بما ينبغي أن يخاف منه، وخائف بما لا أثر له ولا خوف منه، وعلاج الجهل هو العلم، فإذاً الحكمة هي التي تخلصنا من هذه الآلام والظنون الكاذبة، التي هي نتائج الجهالات، والله الموفق لما فيه الخير.

وكذلك نقول لمن خاف الموت لأنه لا يدري على ما يقدم بعد الموت؛ لأن هذه حال الجاهل الذي يخاف بجهله؛ فعلاجه أن يتعلم ليعلم ويشتاق.

وذلك أن من أثبت لنفسه حالاً بعد الموت، ثم لم يعلم ما هي تلك الحال؛ فقد أقر بالجهل، وعلاج الجهل العلم. ومن علم فقد وثق، ومن وثق فقد عرف سبيل السعادة، فهو يسلكها لا محالة، ومن سلك طريقاً مستقيماً إلى غرض صحيح؛ أفضى إليه بلا شك ولا مرية. وهذه الثقة التي تكون بالعلم هي اليقين، وهي حال المستبصر في دينه المستمسك بحكمته، وقد عرفناك مرتبته ومقامه فيما سلف من القول.

أما من زعم أنه ليس يخاف الموت وإنما يحزن على ما يخلف من أهله وولده وماله ونشبه، ويأسف على ما يفوته من ملاذ الدنيا وشهواتها؛ فينبغي أن نبين له أن الحزن تعجّل ألمٍ ومكروه، على ما لا يجدي الحزن إليه بطائل، وسنذكر علاج الحزن في باب مفرد له خاص لأنا في هذا الباب إنما نذكر علاج الخوف وقد أتينا منه على ما فيه مقتنع وكفاية، إلا أنا نزيده بياناً ووضوحاً فنقول: أن الإنسان من جملة الأمور الكائنة وقد تبين في الآراء الفلسفية أن كل كائن فاسد لا محالة، فمن أحب أن لا يفسد فقد أحب أن لا يكون، ومن أحب أن لا يكون فقد أحب فساد ذاته، فكأنه يحب أن يفسد ويحب أن لا يفسد ! ، ويحب أن يكون ويحب أن لا يكون ! ، وهذا محال لا يخطر ببال عاقل.

وأيضا فإنه لو لم يمت أسلافنا وآباؤنا؛ لم ينته الوجود إلينا، ولو جاز أن يبقى الإنسان لبقي من تقدمنا، ولو بقي من تقدمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل ولم يموتوا لما وسعتهم الأرض. وأنت تتبين ذلك مما أقول: هب أن رجلا واحدا ممن كان منذ أربعمائة سنة هو موجود الآن وليكن من مشاهير الناس حتى يمكن أن يحصل أولاده موجودين معروفين كعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه مثلاً، ثم وُلد له أولاد ولأولاده أولاد وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد.

كم يكون مقدار من يجتمع منهم في وقتنا؟ فإنك تجدهم أكثر من عشرة آلاف ألف رجل، وذلك أن بقيتهم الآن مع ما قُدر فيهم من الموت والقتل الذريع، أكثر من مائة ألف نسمة في جميع الأرض، واحسب لمن كان في ذلك العصر من الناس على بسيط الأرض مثل هذا الحساب، فإنهم إذا تضاعفوا هذا التضاعف لم تضبطهم كثرة ولم تحصهم عدداً. ثم امسح بسيط الأرض فإنه محدود معروف؛ لتعلم أن الأرض حينئذ لا تسعهم قياما فكيف قعوداً أومنصرفين، ولا يبقى موضع عمارة يفضل عنهم ولا مكان رزاعة ولا مسير لأحد ولا حركة فضلا عن غيرها وهذه مدة يسيرة من الزمان فكيف إذا امتد الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة.

فهذه حال من يتمنى الحياة الأبدية للبدن ويكره الموت، ويظن أن ذلك ممكن أو مطموع فيه، من الجهل والغباوة.

فإذاً الحكمة البالغة والعدل المبسوط بالتدبير الإلهي هو الصواب، الذي لا معدل عنه ولا محيص منه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية أخرى لطالب مستزيد وراغب مستفيد. والخائف منه هو الخائف من عدل الباري وحكمته بل هو الخائف من وجوده وعطائه.

فقد ظهر ظهوراً حسياً أن الموت ليس برديء كما يظنه جمهور الناس ، وإنما الرديء هو الخوف منه، وأن الذي يخاف هو الجاهل به وبذاته. وقد ظهر أيضا فيما تقدم من قولنا أن حقيقة الموت هي مفارقة النفس البدن، وهذه المفارقة ليست فساداً للنفس، وإنما هي فساد المتركب. وأما جوهر النفس الذي هو ذات الإنسان ولبه وخلاصته فهو باق، وليس بجسم فيلزم فيه ما لزم في الأجسام مما أوردناه قبيل، بل لا يلزمه شيء من أعراض الأجسام، أي لا يتزاحم في المكان، لاستغنائه عن المكان ولا يحرص على البقاء الزماني لاستغنائه عن الزمان، وإنما استفاد بالحواس والأجسام كمالاً، فإذا كمل بها ثم خلص منها؛ صار إلى عالمه الشريف، القريب إلى بارئه ومُنشئه تعالى وتقدس.

وهذا الكمال الذي يستفيده في هذا العالم الحسي قد بيناه وعرفناك الطريق إليه بما سلف من القول في هذا الباب، وأنه السعادة القصوى للإنسان وأعلمناك ضده الذي هو الشقاء الأقصى له، وبينا مع ذلك مراتب السعادة ومنازل الأبرار ودرجاتهم من رضوان الله وجنته التي هي دار القرار، كما بينا لك أضدادها من سخطه ودركاتهم من النار التي هي الهاوية بلا قرار، نسأل الله حسن المعونة على ما يقربنا منه ويبعدنا من سخطه إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

انتهت الرسالة، وهي بنصها مذكورة في كتاب: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه رحمه الله.